

التعليم في صميم الثورة رنا عيسى

قررت ابنتي أن تشارك في مظاهرات طلاب المدارس في الأسبوع الثالث من الثورة، قرار لم أكن لأتوقع مثله في حياتنا المنزلية. رحبت بالمبادرة وسألتهما ما الذي أرغبها في النزول إلى الشارع التحاقاً بأترابها. قالت إنها منذ أن انتقلت إلى لبنان قبل ثلاث سنوات تقريبا وهي لم تستوعب بعد الفلسفة التعليمية للمدرسة الخاصة التي تترادها. قالت إنها سئمت التربية المدرسية التي تعلم أبناء الأثرياء كيف يصبحوا أجنب في بلدهم. تقول لي إنه منذ بدء الثورة وهي تشعر أنها خارج الدائرة الثورية. فهي لا تجيد قراءة العربية بعد مع أنها تتعلم اللغة العربية في المدرسة منذ أن انتقلنا إلى لبنان منذ ثلاث سنوات. تظل تشكوني من حصة اللغة العربية في مدرستها لا سيما وأن أستاذة اللغة العربية تجربها على تعلم الفصحى والاعراب وهي التي لا تعرف كيف تلقي السلام على الناس. تتضايق لكونها غير قادرة على فك طلاسم الهتافات والجرافيتي والأحاديث السياسية المتداولة حولها. تقول إنها ليست وحدها بين أترابها من لا تجيد العربية وإن الكثير من التلاميذ الذين يزدرون اللغة ويمقتون حصة العربي. ماما، إنهم لا يعلموننا أي تاريخ أو أدب أو اجتماعيات يخصّ البلد الذي نتواجد، كل شيء نتلقاه يخص بلدانا لا تمت لنا بصلة وبلغة ليست لغة البلد. سألتها لماذا برأيك لا تُعنى المدرسة بنشر المعرفة عن لبنان، فأجابت أنهم لا يريدون للأثرياء أن يختلطوا بعمامة الناس، لذلك يربونهم على القطيعة مع المجتمع الذي يفترض أن يرثوا هم دفعة قيادته. إما ذلك أو أن الأهل يريدون لأولادهم أن يهاجرون ولا يكون من المدرسة إلا أن تغذي هذه الرغبة لديهم.

لم تكن ابنتي يوما مهتمة بالسياسة. منذ أن انتقلت إلى لبنان تمتعت بامتياز طبقي كان يروق لها لسهولته مع أنها كانت دوماً تشكك بأخلاقياته. لكنها وعلى الرغم من ذلك طفلة وكغيرها من الأطفال تحب اللذات اليومية والصغيرة من الحياة، عالمها محمي من أوساخ المجتمع اللبناني وأدراجه على قولة عالم الاجتماع على الورد، تحب الأشياء. فمن أين يا ترى تبلور هذا الوعي السياسي لديها فجأة؟ كيف حصل أنها والآلاف غيرها من طلاب المدارس أثبتوا أنهم أصحاب وعي سياسي يفتن للرباط بين الوضع الكارثي في البلد وبين المناهج التربوية في مدارسهم. لا تنفك المدارس في تمنع الفشل في أداء وظيفتها التعليمية كما الاجتماعية. فهم تلامذة المدارس هذا الفشل فنزلوا إلى الشارع. التقى تلامذة المدارس الخاصة مع طلاب المدارس الرسمية وسوية بدأوا بالتعرف على بعض وبالتفتيش عن أرضية سياسية مشتركة بينهم.

في الأسبوع الثالث من الثورة، انتفض طلاب المدارس. انتفضوا على الإهمال الكامل لهم من قبل السلطات. وصلت مشاكل المدارس في لبنان إلى درجة تعجيزية من التعقيد. حدد التلاميذ المسؤولية عن الكارثة التعليمية على وزارة التربية المعتكفة عن عملها. هذه الوزارة لطالما أجازت للمدارس الخاصة والرسمية الحرية الكاملة في تحديد برامج التعليم والنشاطات المدرسية على هواها. علاوة على ذلك فطاقم المعلمين يعيش في ذل اقتصادي ووظيفي يتفاقم منذ عشرات السنين. الأزمة تبدأ من تسجيل التلاميذ الجدد فالإدارات تنتقي الطلاب الجدد بحسب الواسطة أو القدرة المادية للأهل ومع ذلك تسمح لنفسها بأن لا تتحمل مسؤولية الأطفال ذوي الاحتياجات الخاصة. وفي ظل غياب أي فلسفة تعليمية واضحة فأسلوب التعليم في معظم المدارس عبارة عن تدريب الطفل على علاقة مع السلطة تعيد فرز الإخضاع وتقويض الفكر النقدي والضغط على الطلاب ليقبلوا أيديولوجيا معلمهم ومدرستهم ويعيدوا انتاجها كأنها علم وحقيقة. في المجمل لن تجد في لبنان أي مدرسة مستقلة عن مظلة المنظومة السياسية الحاكمة في البلد: إما طائفيا أو طبقيا. لذلك فإن ما يثور عليه الطلاب داخل أسوار مدارسهم هو في صميم ما نثور عليه في الشوارع اليوم: نظام كامل لم نبدأ نتشربه إلا في المدرسة.

يتفاقم الجو الموبوء في المدارس اللبنانية في ظل انحسار كامل لوزارة التربية عن السياسة التعليمية. هذا ما سمح للقطاع الخاص بالاستحواذ على التعليم وفرض أنواع شتى من الشهادات الرسمية لطمأنة هواجس الأهل لتأمين تعليم عصري لأولادهم. ذور المقدر المادية لهم أن يختاروا بين عدة شهادات أوروبية أو أميركية، مما يسمح لأولادهم بأن يتماشوا مع العولمة ونظم التعليم الغربية أو المعترف بها في الغرب فيصبحون منفصلين عن فضائهم الحسي. في تلك المدارس أمثال مدرسة ابنتي يردد الأطفال دوما نفورهم من اللغة العربية. إنه شعور غريب نظرا لكون العربية لغة الشارع والمجتمع والدولة التي تتواجد فيها مدرستهم ولكن الأكثر غرابة هو إهمال إدارة المدارس لنفورهم هذا إهمالا مطلقا، حتى أن بعض معلمي اللغة العربية أنفسهم يؤكدون لطلابهم وأهاليهم كرههم للمادة التي يعلمونها. في سياق عملي كأستاذة جامعة وتخصصي في الأدب والترجمة، أضطر يوميا لمواجهة هذه النفور اللامنطقي من العربية المتفشية بين الطلاب. بالكاد أتعرف على طالب أو طالبة مقتنع بضرورة دراسة العربية من أجل تنمية قدراتهم الأدبية والنقدية التي توثق علاقتهم بمجتمعهم. وفي كل فصل عندما يتعرف طلابي (بأغليبتهم

الساحقة) على روايات ونصوص، قديمة كانت أم معاصرة، لبنانية مشرقية كانت أم من بلدان عربية أخرى يستوقفني ذهولهم لما تتضمنه من مفاهيم وسرديات أساسية في حياتهم لم تعنى المدرسة في تطويرها. في كل فصل يصيح أحد الطلاب في الصف: لا يعلمونا تاريخ بلدنا في المدرسة. نحن لا نعلم شيئاً.

إذاً النظام الطائفي اللبناني يعيد إنتاج نفسه في المرتبة الأولى في المدارس. في غالبيتها تتكون المدارس الخاصة من مجموعات وأحزاب دينية وطائفية تجذر الانقسام السياسي الذي يقوم عليه البلد في ذهنية الطفل منذ نعومة أظافره وتضع الأهل في علاقة زبانية مع المؤسسة الدينية يصعب عليهم الاستقلال عنها في ظل الانهيار الحاصل في المدارس الرسمية. من مناسي جورج زريق الأب الذي أحرق نفسه أمام مدرسة طفله لأنه يم يعد قادراً على دفع الأقساط فرفضت إدارة المدرسة حتى إعطاءه إفادة مدرسية تمكنه من نقل إبنته إلى مدرسة رسمية بحجة أن الأب لم يسدد الأقساط المستحقة عليه.

أضحى هذا الإهمال جلياً السنة الماضية مع صدور نتائج امتحانات اليريفيه والباكالوريا الرسمية عن وزارة التربية إذ الطلاب الذين أدرجوا في لائحة الناجحين اكتشفوا بعد أيام أن الوزارة ارتكبت خطأ مجهول ارتكبه الوزارة فأصبحوا في عداد الراسبين وأضاعوا سنة من عمرهم.

قصص كثيرة يذكرها الناس عن الفشل التعليمي في لبنان. لذلك أجبر التلامذة مدارسهم على الإغلاق والنقوا للمرة الأولى في الشارع ليكتشفوا وكتشف معهم أنهم قادرين على التنظيم والتحرك وكسر كل القيود الطبقية والطائفية التي يكرسها النظام التعليمي اللبناني. كنا نحن الأهل نفترض بأن أبنائنا ينتمون لجيل يهتم فقط بالاستهلاك وبالالتحاق بأخر صيحات الموضة، فأتت مظاهرتهم لتعلمنا أن هذا الجيل مثلنا لا يطبق المجتمع الذي قد تشكل حوله. تلك كانت من أجمل لحظات الثورة بالنسبة لي كأب لتلميذة مدرسة. ذهنا جميعاً من قدرة الثورة على الحث على تشكل وعي جماعي حتى بين صفوف صغارنا. فكما بات معروفاً الآن بدأت ثورتهم رداً على رسالة صوتية على الواتس أب من مديرة مدرسة عبراً، تلك الراهبة التي وضعت في سلم أولوياتها انتمائها الحزبي فهددت الطلاب بفصلهم عن المدرسة إذا شاركوا في التظاهرات. الترهيب الممارس من قبل مدرسة عبراً كان كفيلاً بتبيين وحدة النضال بين كل تلامذة لبنان، كأنهم جميعاً يرزحون تحت وطأة سلطة مدرسية لا تخضع لأي محاسبة بل تخضعهم لحساباتها السياسية والزبانية والطائفية الفاسدة. تفعل المدارس ما تشاء بحق التلامذة بدون مساءلة، وإن لم تهددهم علناً لنشاط سياسي كما فعلت مديرة عبراً، فيبقى الإرهاب الاقتصادي تهديداً بالطردهم والتبرم الإداري من أي طفل قد يعبر عن اختلاف في تكوينه ونوع ذكاؤه أو خياراته وذوقه ما قد يعرضه كذلك لطرده أو التنقل المستمر من مدرسة إلى أخرى.

إن مدارس لبنان برمتها تشكل منظومة فاشية، حتى تلك المدارس "الراقية" المتاحة عادة لفاحشي الثراء فحسب (ونشدد هنا على فحش ثرائهم) والتي تدعى الانفتاح والديمقراطية في التعامل مع التلاميذ. كل من يربّي أطفالاً في لبنان يشكو من المدارس مهما كان وضعه المادي ومكانته الاجتماعية ونفوذه السياسي. لا يهتم إلى أي مدرسة ينتسب الطفل. سواء أكان لناحية الإجحاف المتواصل بحق السلك التعليمي من بخس المعاشات الذين بالكاد يكفي الراتب الشهري لحاجياتهم الأساسية لأكثر من عشرة أيام. أضف إلى ذلك المحسوبيات والسلطة على التلاميذ، الذين ألقوا بمسؤولية الكارثة التعليمية على عاتق وزارة التربية رافضين الاستمرار بسياسات الإجحاف بحقهم واستغنائهم من خلال نظم تعليمية منسلخة عن حاجات المجتمع.

وضع المدارس في لبنان كارثي. نقطة على السطر. إن المنظومة المدرسية بنيتها تعلم أولادنا التطبيع مع الطغمة الحاكمة ولذلك كان لنزول تلامذة المدارس إلى الشارع تأثير معنوي كبير على بقية جوانب الثورة. كان نزولهم تأكيداً على رفض حال المدارس التي نمتنع عن توعيتهم عليها عنهم لعنا نقيهم شرّ المواجهة مع العنف الطبقي والطائفي (على الصعيد المعنوي والملموس) الكامن في المؤسسات التعليمية في البلد. نزولهم إلى الشارع سمح لنا كأهل بأن نتواصل مع أبنائنا بشكل لم نعهده ونبدأ حوار غير مسبق معهم حول البيئة المدرسية التي ينتمون إليها. لا خروج من نفق الطائفية والفساد بدون التغيير الجذري في النظام التعليمي في لبنان، هذا ما قاله الطلاب الذين لا يطبقون أن يروا أهلهم يحرمون أنفسهم من بديهيات الحياة من أجل تأمين أقساط باهظة الثمن لساعة تعليمية فاسدة تعيد إنتاج الشرخ الطائفي واللامساواة الطبقية بدل من أن ترمم اللحمة الاجتماعية بين اللبنانيين.

إذا كانت البنوك تسرق أموالنا تأتي المدارس لتسرق أعمارنا. منذ أسبوع انتحر ناجي الفليطي لعدم قدرته على إعطاء طفله خرجية بسيطة. بعد هذه الحادثة بيومين أغلقت مدرسة القلبيين الأقدسين أبوابها بوجه الطلاب. نحن في دوامة رهيبه تهدد التلامذة وأهلهم. أما المدارس فنتجه نحو أكثر نحو الفاشية ومنطق الريح المادي. أطفالنا لا ينزلون الشارع اليوم بسبب الامتحانات وضغط دراسي يهددهم ويهدد اقتصاد عائلاتهم. بشكل أساسي يأتي الضغط على ديمومة الثورة من خلال المؤسسات التعليمية،



Asfari Institute for Civil Society and Citizenship
معهد الأصفري للمجتمع المدني والمواطنة
www.activearabvoices.org

فقط لكون هذه المؤسسات مطبّعة مع النظام في البلد وغير معنية بتغييره. في هذه الأثناء نلهث أنا وابنتي لمواكبة برنامجها التعليمي العالمي الذي لا يعمل على زمن لبنان الثوري. عليها أعباء لا أريدها لها. كان من الأفضل لها وللبلد إن كانت تتبع نظام تعليمي محلي يواكب تطورات البلد، ولكن من منا سيبنيه وكيف للثورة أن تجعله من سلم الأولويات؟